(43) انظر رسالة القنصل الفرنسي لومير الى نواب الغرفة التجارية بتاريخ ،أكتوبر 1692.
(A.CC.M série AA 470.).

(44) وقيل كذلك ان شعبان استنكر سياسة محمد باي الذي حرّض قبائل الحدود على الانضمام اليه والذي استولى على تراب هو للجزائر كما ساتولى على أجزاء من إيالة طرابلس (تشريفات ص 9).

(45) انظر رسالة الداي الى الوزير بونشارترين بتاريخ 1_9_1694.
(Plantet, Correspondance, I, 415).

(46) تشريفات ص 10.

(47) أنظر:
Rousseau, Annales tunisiennes, pp. 74--76.

(48) رسالة شعبان داي الى الوزير الفرنسي بتاريخ 1_9_1694.
(Plantet, correspondance, I, 437).

كان القنصل يرجو من هذه المساعدة مراعاة المصالح الفرنسية بالرأس الأسود
(Cap. Nègre)

41) أنظر :
De Grammont, Histoire d'Alger... p. 28.

(50) أرشيف باريس رقم B2 93 (1693).

(51) رسالة شعبان الى الوزير الفرنسي بتاريخ 1_9_1693.
(Plantet, Correspondance, I, 455)

(52) رسالة الداي الى الملك بتاريخ 1_9_1694.

(53) رسالة الداي الى الملك بتاريخ 6_3_1695.

(54) أنظر :
Petis de La Croix, Mémoire sur Alger, 1695.
(publié par M. Emerit, A.I.E.O. Alger 1953, p. 20).

(55) رسالة من شعبان داي الى الوزير بوشنارترين أنظر :
Plantet, Correspondance, I. 320.

(56) وسقطت الجزائر سنة 1830 فتبعتها تونس سنة 1881 ومصر 1882 وطرابلس 1911.

العلاقة بين الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي وانعكاسها على المقاومة في أوائل عهد الاحتلال

ناصر الدين سعيدوني

تكمن أهمية العلاقة بين الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي في كونها تشكل الحلقة المفقودة في الأحداث التي تميزت بها السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي، وتمثل في نفس الوقت نقطة الضعف في المقاومة الجزائرية، كما أنها في حد ذاتها تعطي صورة حقيقية ومثالا حيا لواقع العلاقات بين الزعماء المسلمين وأسلوبهم في التصدي للغزو الأوروبي في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

فضلا على أن العلاقة بين قطبي المقاومة في شرق البلاد وغربها قد تثير النقاش وتدفع الجيل الحاضر من الجزائريين الى التساؤل: لماذا لم تنسق الجهود وتوحد الصفوف للوقوف في وجه العدو المشترك، وهذه التساؤلات ـ مع وجاهتها ـ ان لم تجد اجابة من أقلام جزائرية تتجاوب والمصلحة الوطنية وتتماشى والحقيقة التاريخية، فانها قد تدفع الكتاب الأجانب والمؤرخين الأوروبيين الى عرضها حسب ميولهم واتجاهاتهم التي قد تتنافى وواقع الأحداث وطبيعة المجتمع الجزائري.

وانطلاقا من هذه الاعتبارات سوف نحاول في هذا البحث التركيز على تفسير الأحداث واستخلاص النتائج من المعلومات المتوفرة والوثائق المنشورة، مما يبرز بحثنا هذا في شكل عرض تحليلي أكثر منه دراسة توثيقية، وذلك رغبة منا في التوصل قدر المستطاع الى تكوين فكرة صحيحة لطبيعة العلاقة بين زعيمي المقاومة في أوائل

الاحتلال، وبالتالي نضع حدا لتساؤل جيل ما بعد الاستقلال الذي لمسنا بحكم احتكاكنا به في مدرجات الجامعة، انه كثيرا ما يميل الى الحكم على الماضي بمنظور الحاضر، ومفهوم هذا العصر، وان اختلف الاطار التاريخي وتغير الواقع الاجتماعي.

فالعلاقة بين الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي تحكمت فيها عوامل نفسية واعتبارات اجتماعية وظروف سياسية، أدت الى توتر في العلاقات استحال معه تبادل المساعدة والعون بين هذين الزعيمين، بل نتج عنه في بعض الأحيان وضعية مضرة بالمقاومة الجزائرية وعاملا مساعدا للاحتلال الفرنسي.

فالعامل النفسي الذي باعد بين الأمير عبد القادر وأحمد باي يعود الى المكونات الشخصية لكل منهما، فالأمير عبد القادر كان لا يميل الى العنصر التركي ولا يطمئن الى جماعة الكراغلة ولا يثق بموظفي البايليك ولا يتعاون مع فرسان المخزن، وذلك بفعل انتمائه للطريقة القادرية وانتسابه لقبيلة هاشم العربية الأصيلة وبحكم اكتسابه ثقافة عربية اسلامية، زادته أنفة واعتزازا بأرومته العربية، التي تأبى الظلم وترفض تعسف رجال الايليك والمتعاونين معهم من قياد وحكام وشيوخ وأعيان، وقد انتهى به الأمر بعد احتجازه بوهران، عندما كان متوجها الى الحج مع أبيه الشيخ محي الدين الى عدم الاعتراف بشرعية الحكام الأتراك ، وعدم التسليم بأحقيتهم في حكم البلاد[1].

ولعل المبرر الوحيد في نظر الأمير عبد القادر للقبول باستمرار حكم الدايات ، هو دفاعهم عن البلاد وحمايتهم لها من العدو الخارجي، ولهذا عندما ابعد الخطر الاسباني من وهران والمرسى الكبير (1792)، وفشل الداي حسين في التصدي للجيش الفرنسي ورضخ لشروط الفرنسيين في 4 جويلية 1830، اعتبر الأمير عبد القادر ان الحكم التركي بالجزائر قد انتهى الى الأبد وان ارتباط البلاد الجزائرية بالدولة العثمانية لم يعد أمرا واردا، واقتنع عند ذاك بضرورة تغيير الأنظمة والقوانين التي كان العمل جاريا بها، فأبطل في دولته امتيازات الأتراك وألغى ما كانت قبائل المخزن وجماعة الكراغلة تحظى به من معاملة مفضلة على حساب عامة سكان المدن ومجموع قبائل الرعية بالأرياف، وقد عبر عن ذلك في العديد من رسائله ، ففي رسالة وجهها الى السلطان عبد المجيد أظهر نقمته على تصرفات الأتراك وألقى كل المسؤولية فيما حل بالجزائر من ويلات ومحن على فرق الانكشارية، اذ ذكر أن: «ما

من مدينة من مدن الاسلام دخلها الكفار الا كان الينشارية هم دعاتهم اليها ومن سببها... فذهبوا الى تلمسان «أي الكفار» باتفاق الينشاري الذين بها»[2].

هذا في الوقت الذي كان فيه أحمد باي يرى ضرورة المحافظة على سلطة البايليك ويعمل على ربط البلاد الجزائرية بالدولة العثمانية...، وقد كان لانتمائه لجماعة الكراغلة وتوليه منصب باي قسنطينة منذ 1826، ورغبته في الابقاء على سلطته وتطلعه الى نيل لقب الباشا ، دخل كبير في تمسكه بهذا الموقف الذي لم يحد عنه ولم يتنكر له طيلة مقاومته للفرنسيين.

وقد انتهج أحمد باي لتحقيق طموحه وتنفيذ مشروعه هذا خطة عملية مكنته بالفعل في ظرف عدة سنوات من تدعيم مكانته على رأس بايليك قسنطينة، وسمحت له بتنصيب نفسه كمدافع عن الجهات الشرقية من الجزائر ضد الفرنسيين، وتتلخص هذه الخطة في أنه بعد أن لمس مدى الضعف العسكري والفوضى الادارية التي كانت تعيشها البلاد الجزائرية عند نزول الفرنسيين بسيدي فرج، سارع بالرجوع الى مقره بقسنطينة، وعمل على كسب تأييد الحضر، فأرضى شيخ البلد سيدي أحمد بن الفقون لما له من نفوذ عليهم، وكون قوة عسكرية حسنة التدريب والتنظيم، ساعدته في بسط نفوذه على أغلب قبائل الشرق الجزائري، ومكنته من اخضاع أعدائه وقهر منافسيه من حضر وأتراك وشيوخ قبائل، وفي اطار هذا المخطط، كان أحمد باي لا يتسامح مع أي شخص قد ينافسه في زعامته، اذ بادر بقتل رسل الباي مصطفى بو مزراق حاكم التيطري الذين حملوا اليه الهدايا وخلعة التولية، لأنهم طلبوا منه تقديم المدد ودفع الضريبة للباي بو مزراق الذي اعتبر هن الآخر نفسه أحق بتولي الأمور بالجزائر بعد تسليم الداي، وحاول تنظيم المقاومة ضد الفرنسيين بنواحي التيطري[3].

وهكذا استطاع أحمد باي بفضل هذه الخطة أن يظهر نفسه الحاكم الجدير بقيادة المقاومة والكفيل بارجاع هيبة البايليك ، فالتحق به الأتراك الذين خرجوا من مدينة الجزائر بعد سقوطها في يد الفرنسيين كما انضم اليه الكراغلة في مختلف الجهات، وتطوع في جيشه عدة مئات من كراغلة وادي الزيتون[4]، وانضوى تحت لوائه أغلب فرسان المخزن بالجهات الشرقية، وهذا ما أكد له أحقيته في تولي منصب باشوية الجزائر، ودفعه الى الحط من شأن الأمير عبد القادر الذي وصفه في احدى رسائله بهذه العبارات المستهجنة: «ان هناك منافق يعرف بعبد القادر بن محي الدين

ويدعى الشرف ظهر في المغرب...»[5]. وقد شاركه في موقفه هذا معظم أعيان الحضر وزعماء الكراغلة كابراهيم باي ومصطفى باي والقائد بيروم وكذلك حمدان خوجة صاحب المرآة الذي أظهر تعاطفه مع أحمد باي في السنوات الأولى للاحتلال، ووصف الأمير في احدى رسائله بهذه العبارة الجارحة: «ومن جملة ما فعل هذا المرتد أنه تحيل على أن يظهر واحد من العرب يحبه للفرنسيين لعل أن يسلموا له البلاد»[6].

أما الوضع الاجتماعي الذي فرق بين الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي، فيعود في أساسه الى واقع العلاقة بين المدينة والريف، فالمدن الجزائرية حيث تتركز الأقلية التركية وتتواجد العناصر الكرغلية، وتعيش جماعات الحضر وطوائف اليهود كانت من حيث نشاطها الاقتصادي وقدرتها الحربية وثقلها الديمغرافي تعتبر هامشية بالنسبة للمجتمع الجزائري آنذاك، اذا كانت غالبية السكان تتألف من سكان الريف بنسبة لا تقل عن 95 ٪[7]، وهذا ما جعل الريف الجزائري ينطوي على قدرات عسكرية فعالة وامكانيات اقتصادية كبيرة واحتياط بشري متزايد، عكس المدن التي بقيت منعزلة داخل اسوارها تتخوف من الأرياف المحيطة بها.

فمن هذه الأوضاع الاجتماعية التي كانت تعيشها المدن والأرياف الجزائرية يعود تباين واختلاف مفهوم ومميزات الكفاح الذي كان يخوضه كل من أحمد باي والأمير عبد القادر، فأحمد الباي باعتباره من سكان المدن يقدم لنا نموذجا لمقاومة المدينة، هذه المقاومة التي لم تجد صدى بالأرياف المجاورة، اذ ان سقوط قسنطينة في يد الفرنسيين (1837) لم يحدث رد فعل بالأقاليم المحيطة بها، في حين نجد أن مقاومة الأمير عبد القادر، هي في أساسها انتفاضة الريف الجزائري بما يزخر به من امكانيات اقتصادية وقدرات عسكرية هائلة، وهذا هو السر في استمرار مقاومة الأمير مدة طويلة ناهزت سبع عشرة سنة، بخلاف كفاح أحمد باي الذي ما لبث أن تراجع وانحصر بالزيبان والأوراس اثر سقوط قسنطينة.

هذا ويندرج في سياق العلاقات الاجتماعية التي نتج عنها اختلاف أسلوب كفاح الأمير عن مقاومة أحمد باي، تأثير نوعية نظام الملكية وطبيعة استغلال الأرض على استمرار هذه المقاومة وتطورها، ففي المناطق التي ظل فيها السكان يستغلون الأرض بأنفسهم ولفائدتهم الخاصة كدواخل بايليك الغرب وجهات التيطري

وأطراف بايليك الشرق، نلاحظ اشتداد المقاومة واستمرارها مدة طويلة، وفي الجهات التي استحوذ فيها موظفو البايليك وحضر المدن على الملكيات الزراعية واستخدموا فيها جموع الفلاحين الفقراء، كسهول متيجة ونواحي عنابة وقسنطينة، أو التي استقرت عليها قبائل المخزن، كسهول وهران ومناطق الهضاب العليا القسنطينية، نلمس ارتباط المقاومة فيها بأوضاع المدن الواقعة بالقرب منها، فتواجد الفرنسيين بوهران ومستغانم وآرزيو وعنابة والجزائر والبليدة وقسنطينة ترتب عنه بسط السيادة الفرنسية بسهولة على سهول وهران ومتيجة وعنابة ومناطق الهضاب العليا القسنطينية، بينما واجه الفرنسيون صعوبات جمة ومقاومة عنيدة في اخضاع دواخل وهران ونواحي التيطري وأطراف بايليك قسنطينة، فلو ان مناطق غريس وتلمسان والسرسو والمدية وزكار امتلك أراضيها البايليك ووضع عليها سكان المدن أيديهم لتغيرت طبيعة كفاح الأمير عبد القادر وصعب عليه تجنيد السكان وتنظيم المقاومة ولانتهت هذه المقاومة بعد استيلاء كلوزال على معسكر في 6 ديسمبر 1835 ودخوله تلمسان في 13 جانفي 1836، وبعد سقوط حصون تاقدامت وتازة. ونفس الشيء ينطبق على أحمد باي، اذ لو أن الأوراس والزيبان عرفت نفس نظام الملكية الذي كان سائدا في الهضاب العليا لما وجد أحمد باي ملجأ أمينا ومكانا ملائما لاستمرار المقاومة بعد سقوط قسنطينة.

ومن هذا الواقع الاجتماعي نرى ان الخلاف بين أحمد باي والأمير عبد القادر هو في أساسه يعود الى عدم الثقة بين سكان المدن والأرياف، فالمدن ظلت منكمشة على نفسها منطوية داخل أسوارها منعزلة عن الريف المحيط بها، بينما الريف ظل يفتقر الى دعم المدن وخبرتها في مجال الصناعة الحربية بالخصوص، وقد عبر أحمد باي في رسالة بعثها الى حسين باشا طرابلس يخبره فيها بسقوط قسنطينة، عن نظرة سكان المدن نحو أهالي الريف، عندما أبدى تخوفه من سكان البادية وأظهر تشككه في قدرتهم على مواصلة الكفاح، بهذه العبارة: «اننا ان مكثنا بالبادية وطال الأمر عنا يحصل لهم الملل والوطن دخلته رائحة الكفر، وأهل البوادي ضعفاء القلوب لا سيما وابن محي الدين وهو الآن في اعانة العدو»[8].

فهذه النظرة بالذات هي التي جعلت أحمد باي لا يستنجد ببعض شيوخ الطرق ورجال الزوايا، ولا يرى فائدة حتى في تكوين قوة محاربة من رجال القبائل

خارج قسنطينة، في الوقت الذي كان فيه الفرنسيون يخططون للقضاء عليه، بل انتهى به الأمر اثر الحصار الأول (1836) وتراجع الفرنسيين منهزمين الى عنابة، الى تفضيل اسلوب المقاومة داخل الأسوار، وحتى عند انسحابه نحو الجنوب القسنطيني بفعل قرابته مع شيخ العرب ابن قانه، فانه لم يحسن استغلال الأوضاع ويعطي كفاحه صبغة دينية كما فعل الأمير، بل بقي يتصرف بعقلية حكام البايليك، مما أدى به الى الاصطدام بالتكتلات القبلية والأحلاف العشائرية، الأمر الذي حد من قدرته على مواجهة الفرنسيين في تلك الجهات.

وقد أثبت تطور الكفاح الجزائري ضد الاحتلال، ان المقاومة الممكنة آنذاك ضد الجيش الفرنسي المتفوق عدة وعددا وتدريبا، لا يمكن أن تعتمد على سكان المدن أو تقوم على اكتاف زعمائهم كأحمد باي مثلا، بل من الضروري أن ترتكز أساسا على أهالي الريف حيث الاستعداد النفسي والحماس الديني الذي يدعو له أتباع الطرق الدينية ويتعهده شيوخ الزوايا. فلو أن الأمير عبد القادر اعتمد في مقاومته على مناعة أسوار معسكر وتلمسان وملیانة والمدية أو اطمأن الى حصانة ابراج تاقدامت وبوغار وتازة وسبدو لانتهى نشاطه الحربي واختفى أثره اثر الهجمات الفرنسية الأولى التي قادها ضده الجنرال كلوزال، ولارتكب نفس الخطأ الاستراتيجي الذي وقع فيه أحمد باي عندما اقتنع بعد دحر الفرنسيين عام 1836 بجدوى التصدي للفرنسيين حول أسوار قسنطينة، ونفس الدواعي هي التي دفعت الجنرال بيجو بعد تعرفه على الواقع الجزائري الى نقل الحرب الى الريف وانتهاج اسلوب الأرض المحروقة الذي مكنه بالفعل من القضاء أخيرا على مقاومة الأمير عبد القادر سنة 1847 (9).

أما الظروف السياسية، التي تحكمت هي الأخرى في علاقة الأمير عبد القادر بأحمد باي ودفعت كل منهما الى معاداة الآخر والتخوف منه، فهي ترجع في مجملها الى تجاهل الأمير للحاج أحمد باي، وعدم تفهم هذا الأخير لخطورة الوضع في الفترة التي تلت احتلال الجزائر العاصمة مباشرة، فأحمد باي كان يعتقد أن في امكانيته انقاذ الناحية الشرقية وحصر الخطر الفرنسي في السواحل والجهات الوسطى القريبة من مدينة الجزائر ولو لفترة زمنية محدودة، ولعل احجام أحمد باي عن الاتصال بحكام وهران والمدية والتنسيق معهم وتنظيم القوة التركية المتواجدة آنذاك بحصون شرشال والقليعة وملیانة والبليدة وغيرها ناتج عن طبيعة الصدمة التي أحدثها

الاحتلال وعن الأوضاع الصعبة التي كان يعيشها الشرق الجزائري، فضلا عن ان المناورات الفرنسية الرامية الى ايهام أحمد باي بأن حملتهم موجهة ضد الداي حسين فقط، كان له دخل في هذا الموقف الذي وقفه احمد باي من الأحداث، فقد اتصل به الفرنسيون أثناء استعدادهم لغزو الجزائر وحاولوا اقناعه بعدم القيام بأي عمل معاد لهم، ولكن أحمد باي حسبما يظهر تفطن لهم، ولذلك كان يجمع قواته للالتحاق بالجزائر كما طلب منه الداي وفي نفس الوقت كان يجري هذه الاتصالات مع الفرنسيين، وبعد سقوط الجزائر وتراجعه الى قسنطينة أعاد الفرنسيون الاتصال به وأجروا معه مفاوضات عن طريق قنصلهم بتونس دي لسبس de Lesseps وبواسطة قاضي عنابة السابق خليل المقيم ببنزرت، وحاولوا هذه المرة استدراجه للتعامل معهم لكنه رفض (10)، وهذا ما يدفعنا الى الاعتقاد بأن هذه الاتصالات والمفاوضات اقنعت أحمد باي الى حد ما بامكانية حصر النزاع مع الفرنسيين في سواحل القالة ومنطقة عنابة والمحافظة على بايليك الشرق تحت سلطته.

وقد كان بمقدور الحاج أحمد باي باعتباره حاكم أكبر المقاطعات ان يجمع فلول القوة التركية وينظم الدفاع عن اقليمي دار السلطان والتطري، بعد تسليم الداي حسين، لكنه فضل أن يعود الى قسنطينة بسرعة، مكتفيا بتشجيع العائلات التركية وجماعات الكراغلة على الالتحاق به، بعدها ظل منهمكا في تنظيم شؤون بايليك الشرق ومكتفيا باجراء اتصالات مع الدولة العثمانية، ولم يحاول البتة أن يتدخل في قضية كراغلة تلمسان أو يتصل بكراغلة وادي الزيتون رغم تعاطفهم معه واستعدادهم للانضمام اليه، ولم يتعرف حتى عن تطوز الأمور ببايليك الغرب حيث بدأ أمر الأمير يتعاظم ونفوذه يتسع، وهذا ما يسمح لنا بالقول ان أحمد باي لم يحاول استغلال كل الظروف السياسية لصالحه ولخدمة المقاومة الجزائرية، فهو من جهة ظل يتجاهل كل القوى الجديدة التي برزت الى الميدان للتصدي للفرنسيين، ومن جهة أخرى لم يحاول الدخول في علاقات سياسية ومحالفات عسكرية مع ولاة طرابلس وبايات تونس لتدعيم مكانته وقطع الطريق أمام المحاولات الفرنسية الرامية الى عزل الجزائر عن نطاقها المغربي وبعدها الاسلامي ومجالها العثماني، وهذا رغم تخاذل حكام طرابلس وتواطئ بايات تونس مع الفرنسيين، ولهذا نرى ان عدم تحرك أحمد باي في الوقت المناسب لمواجهة الأوضاع سمح لبايات تونس بانتهاج سياسة

ملء الفراغ التي أصبحت في نظرهم تعيشه البلاد الجزائرية بفعل انهيار الدايات ، بعد أن أوهمهم القنصل الفرنسي بتونس دو لسبس بمشاريع خيالية، وأظهر لهم موافقة الجنرال كلوزال على حكم مقاطعتي قسنطينة ووهران من طرف أفراد من الأسرة الحسينية الحاكمة بتونس، وكان الجنرال الفرنسي في سياسته هذه يرمي الى تطبيق اسلوب عملي في احتلال الجزائر يعتمد في ظاهره على اتفاق فرنسي ـ تونسي، ويؤدي في النهاية الى وضعية تضمن لفرنسا حكم الجزائر واستغلالها بدون تحمل نفقات، مما سمح باجراء مفاوضات بين الحاكم الفرنسي للجزائر كلوزال وضابط القصر التونسي محمد شولاق ورفيقه حسونة مورالي في شهر اكتوبر 1830 ، وانتهى الأمر بهذه المفاوضات الى صياغة بنود معاهدة في 18 ديسمبر 1830 بقيت حبرا على ورق ولم يكتب لها النجاح لاسباب يطول التعرض لها[11].

ومع فشل المخطط الفرنسي وغض النظر عن هذه المعاهدة، الا أن موقف بايات تونس مع الحاج أحمد باي ظل بفعل هذه الأطماع يتصف بالسلبية، الأمر الذي زاد من مصاعب حاكم قسنطينة واعاقه على اقتناء البارود واشتراء الأسلحة الايطالية من الموانئ التونسية في كثير من الأحيان.

وهكذا تركزت مساعي أحمد باي الدبلوماسية على الاتصال بالحكام العثمانيين في محاولة توثيق الصلات مع السلطان، وعلى عقد صفقات تجارية مع الانكليز بواسطة ممثلهم في تونس السير توماس ريدThomas Reade[12] ، الأمر الذي لم يؤثر بصورة ملموسة على تطور الأحداث بالجزائر، بينما كان موقف الأمير عبد القادر من الظروف السياسية التي تميزت بها السنوات الأولى للاحتلال يختلف كثيرا عن أحمد باي، اذ حاول الأمير جاهدا تفويت الفرصة على الفرنسيين والوقوف في وجه مخططاتهم الرامية الى جر المسلمين لمحاربة بعضهم البعض ، فتقرب في هذا الصدد من المغاربة بفعل مداراته لسلطان المغرب وتقربه اليه، وتمكن بالفعل من الحيلولة دون حدوث تقارب مغربي ـ فرنسي، بل تسبب بصورة غير مباشرة في احتكاك فرنسي ـ مغربي، اثر دخول الجيش المغربي الأراضي الجزائرية في 13 نوفمبر 1830، استجابة لنداء سكان تلمسان وردا على رسالة الوزير التونسي ابي عبد الله بن ادريس الذي بعثها الى قائد وجدة في 30 اكتوبر 1830، يعلمه فيها بقرب وصول كتيبة تونسية لتتولى حكم الاقليم وتنظيم شؤونه عملا بالاتفاق التونسي الفرنسي

السالف الذكر[13].

ونفس المساعي قام بها الأمير قصد احداث تقارب جزائري تونسي، فبعث بالهدايا ووجه الرسائل الى باي تونس ووزرائها عن طريق خلفائه في النواحي الشرقية، وعلى رأسهم الحسين بن عزوز ومحمد الصغير بن عبد الرحمن بن أحمد بن بالحاج وأحمد بن سالم، هذا في الوقت الذي كان فيه مصطفى ابن التهامي يتوجه الى طنجة وفاس والرباط في محاولة حث الانكليز على الدخول في منافسة الفرنسيين[14] أملا في احداث نوع من التوازن يخفف من الضغط الفرنسي ويحد من طموحات قادة جيش الاحتلال.

كل هذه الأساليب الدبلوماسية والعلاقات السياسية التي تميزت بها الأحداث آنذاك تعكس تعارض وجهات النظر بين أحمد باي والأمير، اذ في الوقت الذي كان يركز فيه أحمد باي نشاطه على جهة واحدة هي الدولة العثمانية، نجد أن الأمير عبد القادر كان يحاول قدر المستطاع ايجاد توازن لصالحه بين مختلف الاتجاهات والقوى الدولية التي كان يتعامل معها، ورغم التواطئ الاسباني والسلبية الانكليزية والتخاذل التركي وانهزامية سلطان المغرب وضيق أفق بايات تونس، فانه قد استطاع الى حد ما اثارة تنافس انكليزي ـ فرنسي على المستوى الأوروبي ، واحداث احتكاك تونسي مغربي ـ عثماني على المستوى المحلي.

بعد هذه العوامل السياسية والاجتماعية والنفسية التي سبق التعرض لها، والتي أدت الى احداث قطيعة نهائية بين أحمد باي والأمير عبد القادر وحالت دون التوصل الى مصالحة لخدمة مصالح المسلمين. رغم توفر الرغبة الصادقة لكليهما في الوقوف في وجه التوسع الفرنسي. بعد هذا نتعرض الى بعض الأحداث التي تعكس لنا ذلك التوتر والعداء الذي ميز العلاقة بين الزعيمين. مثل موقف أحمد باي من معاهدتي الأمير مع فرنسا. ورأي الامير في حصار قسنطينة وسقوطها في يد الفرنسيين . ومحاولة كل منهما جر الباب العالي الى جانبه في صراعه مع الآخر. وأخيرا مدى تأثر أحمد باي من اتساع نفوذ الأمير في الشرق الجزائري. على حساب سلطته.

أ ـ أما بالنسبة لمعاهدتي الأمير مع الفرنسيين ، سواء معاهدة 26 فيفري 1834 المعروفة بمعاهدة دي ميشال Des Micheles ، أو معاهدة 30 ماي 1837

المشهورة بمعاهدة التافنة، فان أحمد باي اعتبرهما عملاً عدائيا موجها ضده، ورأى فيهما خطة تستهدف القضاء على حكمه بباياليك الشرق. وهذا ما دفعه الى التشهير بهذا التواطئ واتهام الأمير عبد القادر بأنه يتعامل مع العدو الفرنسي لالحاق الهزيمة به، ففي رسالة وجهها الى كمال باي، أحد أعيان الدولة العثمانية، في شهر جوان من عام 1837 اي بعد حوالي شهر من عقد معاهدة التافنة، أبدى أحمد باي رأيه في هذه المعاهدة بقوله: «ان العدو أبرم السلام مع عبد القادر... وأحد شروط هذا السلام ان عبد القادر متفق تماما مع العدو على القضاء على كل أثر لسلطتي بالباياليك[15]»، وفي رسالة أخرى وجهها الى الباب العالي في أواسط شهر جانفي 1838 اثر التجائه الى الأوراس لمواصلة الكفاح أكد نفس هذا الموقف اذ ذكر ان «عبد القادر انضم الى الفرنسيين قائلا لهم اذا منحتموني قسنطينة ومقاطعتها فاني آتي لكم بالحاج أحمد حيا، وقد أجابه الفرنسيون عندما تسلم لنا الحاج أحمد فسوف نعطي لك قسنطينة ومقاطعتها»[16].

هذا وان الواقع ينفي هذه النظرة الشخصية للأحداث التي رأى من خلالها أحمد باي اتفاق الأمير مع الفرنسيين، لأن دواعي معاهدتي دي ميشال والتافنة تكمن أساسا في رغبة الأمير عبد القادر في ارساء دعائم دولته وتقوية جيشه وتأكيد شرعيته وحصر مناطق النفوذ الفرنسي في السواحل حول مدن الجزائر وعنابة ووهران ومستغانم وآرزيو، كما تعود أيضا تلكا المعاهدتان الى الظروف الحرجة التي كان يعيشها الغرب الجزائري من جراء محاولة سلطان المغرب المستمرة لاستيعاب جهاد الأمير وادخاله في نطاق نفوذه. ونظرا لموقف قبائل المخزن وجموع الكراغلة وأعيان المدن وبعض شيوخ الزوايا كزاوية عين ماضي مثلا، هذا مع أننا لا ننكر سوء النوايا الفرنسية التي كانت تهدف الى تجميع القوات الفرنسية في جبهة واحدة حتى يسهل عليها القضاء على مقاومة أحمد باي بالشرق الجزائري.

وعلى كل فان اتفاق الأمير عبد القادر مع الفرنسيين قد أشعر أحمد باي بأنه لم يعد الشخصية المؤهلة لتصدر الأحداث وتزعم المقاومة أو القادرة على جلب انتباه الدول الأوروبية، مما يعطي الأسبقية للأمير باعتباره الممثل الوحيد والزعيم الحقيقي لكل الجزائريين، والخصم القوي الجدير بالاعتبار في نظر العدو، وهذا ما ساعد كثيرا على اخراج القضية الجزائرية نهائيا من اطار الدولة العثمانية، لتأخذ بعدا دوليا من

جهة وطابعا جزائريا محضا من جهة أخرى.

ب ـ وفيما يخص حصار قسنطينة في شهر نوفمبر 1836 وسقوطها في يد الفرنسيين في 13 أكتوبر 1837، وانعكاسه على العلاقة بين أحمد باي والأمير عبد القادر، فان كاتب سيرة الأمير، هنري تشرشل[17]، حاول أن يعرض وجهة نظر الأمير، ويبرر موقفه السلبي من حصار قسنطينة الأول، اذ ذكر أن الأمير كان يعتبر المخطط الفرنسي لمحاصرة قسنطينة الذي كان يعتزم كلوزال تنفيذه في خريف عام 1836، لا يتعارض مع مصالحه سواء في حالة نجاحه أم فشله، ففي حالة تمكن الفرنسيين من الاستيلاء على قسنطينة وايقاعهم الهزيمة بأحمد باي فانه يكون قد تخلص ـ في هذه الحالة ـ من خصم خطير وعدو لدود من دون تضحيات، ويصبح بامكانه بعد ذلك مد نفوذه على باياليك الشرق وكسب ولاء قبائل الجهات الشرقية من الجزائر بفعل توجه الأنظار اليه وازدياد هيبته وتعاظم نفوذه بين السكان، وفي حالة فشل الخطة الفرنسية وتمكن الحاج أحمد باي من تحقيق انتصار على الجيش الفرنسي ـ وهذا ما حدث بالفعل ـ فان الأمير يصبح في موقف قوة لتزايد مصاعب الفرنسيين. مما يدفع بقادة الجيش الفرنسي في الأخير اما الى الانسحاب واما الى الرضوخ لمطالب الأمير والتسليم بشروطه.

وبالفعل فان موقف الأمير من خلال وجهة النظر التي عرضها تشرشل يعتبر سليما في أساسه وواقعيا في مراميه، لكنه في نفس الوقت كان ينطوي على مجازفة ويحمل في طياته اخطارا لا يمكن التقليل من نتائجها على مستقبل مقاومة الأمير عبد القادر نفسه، اذ ان اندحار الفرنسيين أمام أسوار قسنطينة في أواخر خريف عام 1836، ساعد على توقيع معاهدة التافنة التي كانت أغلب بنودها في صالح الأمير اذ سمحت له بمهلة لتقوية جيشه وتنظيم دولته، ولكنها في نفس الوقت سمحت للفرنسيين أن يركزوا جهودهم الحربية لاخماد مقاومة أحمد باي، وهذا ما جعل الاستمرار في اتباع سياسة كهذه يعتبر خطأ حربيا قاتلا، وهذا ما برهنت الأيام عليه ودفع الأمير عبد القادر ثمنه غاليا.

هذا وتكمن نقطة الضعف في موقف الأمير عبد القادر من سقوط قسنطينة موقف المتفرج، في حصول اختلال في توازن ميزان القوى بالجزائر، فاختفى الخصم الضعيف للأمير، وهو أحمد باي، وبقي الخصم القوي وهم الفرنسيون، وكان من

المفروض أن يظل أحمد باي يمثل قوة توازن في الشرق الجزائري تشغل فرنسا وترغمها على مهادنة الأمير. وقد تفطن الأمير الى خطورة الوضع بعد تغيره في غير صالحه، وحاول أن يتدارك ذلك لكن بعد فوات الفرصة، فلم تجده تلك الهجمات الخاطفة التي شنتها قواته بعد أن أصدر لها الأوامر من مقره بالمدية، ولم يتمكن رغم الغارات الجريئة من ارغام الفرنسيين على التراجع الى مدينة الجزائر في اواخر شهر نوفمبر 1839، اذ ما لبث أن وجد نفسه في مواجهة خصم قوي، فلم يطل به الأمر حتى ارغم على التقهقر والانسحاب من مدنه ومراكزه، والالتجاء الى حرب العصابات، وفي الأخير وبعد مقاومة بطولية التجأ الى المغرب طلبا للعون والمدد عام 1846، قبل أن تضطره الظروف ويرغمه جيش السلطان عبد الرحمن الى الخروج من المغرب والتسليم للفرنسيين في 23 ديسمبر 1948.

جـ ـ أما فيما يتعلق بمحاولة كل من أحمد باي والأمير عبد القادر ربط صلات وتوثيق علاقات مع الباب العالي على حساب الآخر، فتتميز خاصة بنجاح مساعي أحمد باي الذي تمكن باعتباره أحد رجال البايليك السابقين الذين ظلوا مخلصين للدولة العثمانية والعاملين على ابقاء صلات البلاد الجزائرية بالباب العالي كما كانت قبل الاحتلال، أن يكسب مناصرة السلطان له وتعاطفه مع كفاحه، وان لم يحصل بالفعل على عون معتبر أو مساعدة هامة، ولم ينل لقب الباشا رسميا مع أنه كان يسعى لهذا اللقب لتأكيد مكانته في نظر العامة، وذلك لتردد الباب العالي في اسباغ هذا الامتياز لاعتبارات خاصة، وهكذا اقتصر تأييد الدولة العثمانية لأحمد باي بعد التجائه الى الجنوب القسنطيني بعد دخول الفرنسيين قسنطينة على توجيه رسائل التشجيع والايعاز الى باي تونس لتقديم ما يراه ممكنا من المساعدة له[18].

وقد كان أحمد باي أثناء سعيه لاكتاسب تأييد وعون الدولة العثمانية، يحاول اظهار الأمير عبد القادر في صورة الشخص المعادي للباب العالي والمتواطئ مع الفرنسيين، اذ ذكر في احدى رسائله ان: «عبد القادر بن محي الدين يدعي الشرف... اتفق مع الفرنسيين... وحاول اقناع الناس بأنه سوف يأخذ قسنطينة ويقضي على بقايا الترك في هذه الناحية»[19]، مما عمل على ازدياد تخوف الساسة العثمانيين من كفاح عبد القادر ودفعهم الى اعتباره عائقا في وجهه الخطوات الرامية الى التوصل الى اتفاق مع الفرنسيين تسترد الدولة العثمانية بموجبه الجزائر بالطرق

السلمية والأساليب الدبلوماسية.

ومع استحالة التوصل الى مثل هذا الاتفاق، بعد أن امتنعت الحكومة الفرنسية عن الدخول في مفاوضات مع الباب العالي، فان الممثلين العثمانيين في العواصم الأوروبية ظلوا يصرون على عداوتهم للأمير ويحاولون دفع الفرنسيين الى عدم الاعتراف به أو التفاوض معه، فقد كاتب السفير العثماني نوري بعد انتقاله من لندن الى باريس، وزير خارجية فرنسا الكونت مولي Molé يطلب مقابلته ويعرب عن أسفه البالغ «بسبب وضع شخص عادي تابع للسلطنة العلية بشكل حازم ومصالحة جناب فخامة دولة فرنسا مع ذلك الشخص المرقوم (يعني عبد القادر) أمر مناف لاصول روابط الخلاص والصفاء القائمة بين فرنسا والدولة العثمانية العلية»[20]، وفي تصريح لنفس السفير أثر توليه منصب مستشار لرشيدي باي توجه به الى الكونت مولي أيضا عبر فيه عن موقف الباب العالي من كفاح الأمير بهذه العبارات: «ان عقد معاهدة مع شيخ عربي مثل عبد القادر يعد عملا منافيا لعظمة فرنسا». الأمر الذي أثار الوزير الفرنسي وجعله يرد عليه بحدة: «ان فرنسا حرة في التصرف فيما تشاء»[21].

وعلى كل فاننا نرى أن نوعية العلاقة بين أحمد باي والباب العالي كان لها دخل في عداء موظفي الدولة العثمانية للأمير عبد القادر. وان كان هذا العداء يرجع في أساسه الى السياسة غير الواقعية التي كانت تنتجهجها الدولة العثمانية وترمي من ورائها الى تحقيق اتفاق مع فرنسا يضمن لها اعادة الجزائر الى حظيرة النفوذ العثماني، لا سيما بعد أن خدعهم ذلك الأسلوب الدبلوماسي الماهر الذي اتبعه الفرنسيون لتحييد الدولة العثمانية في غزوهم للجزائر، ففي الوقت الذي كان فيه الفرنسيون يعملون لتوطيد حكمهم بالجزائر كانوا يتظاهرون بصداقتهم للسلطان، ويعرضون امكانية وضع باشا عثماني على رأس حكومة الجزائر وابقاء حامية تركية نظامية معه تستبدل كل خمس سنوات مع الاحتفاظ بمقاطعة عنابة عملا بحقوق امتيازات صيد المرجان، وذلك بعد القضاء على الرق والقرصنة والغاء الاتاوات، ولأخذ مثال عن هذا الأسلوب الفرنسي الذي تأثر به موقف الساسة العثمانيين نورد هذه الفقرات من رسالة رسمية مؤرخة في 18 جويلية 1830 توجه بها دوبولينياك De Polignac للممثل الفرنسي باسطنبول الجنرال قيومينو Guilleminot : «ان الملك يعتزم اعادة

الجزائر الى السلطان، لأن الصداقة القديمة التي تربطنا بالباب العالي تلزمنا أن نتقاسم معه نتائج انتصاراتنا»[22]. مع العلم بأن خبر سقوط الجزائر في يد الفرنسيين لم يحدث أي رد فعل بعاصمة الدولة العثمانية ، ولم يثر أي استياء أو قلق لدى عامة الناس، وهذا ما يفهم من برقية مؤرخة في 10 جويلية 1830 بعثها الممثل الفرنسي الجنرال قيومينو الى وزارة الخارجية الفرنسية جاء فيها بالخصوص : «ان الانتباه الذي أولاه الأتراك لحملتنا على الجزائر، يتصف باللامبالاة وعدم الاهتمام، أكثر مما ينم عن القلق والاستياء ، اذ حسبما يظهر كانوا يجهلون حتى اذا ما كانت لهم حقوق سيادة على الجزائر أم لا وعلى كل فان معالجة القضية في المستقبل لا تثير قلق أي شخص، وحسب أقوالهم ان ايجاد حل لهذه القضية يتعلق بالجزائريين أنفسهم. فالجزائر بالنسبة لهم كانت لا تشدها الى الدولة العثمانية سوى روابط ضعيفة، وان حكامها كانوا لا يكلفون أنفسهم حتى بالرد على فرمانات التولية التي كان يبعث بها السلطان لهم، فالجزائر لا تعني لدى السلطان أكثر مما تعنيه الدول الكاثوليكية لدى البابا»[23]. ومع هذا الموقف العدائي الذي وقفته الدولة العثمانية من جهاد الأمير عبد القادر، فان الظروف اضطرت الأمير بعد نقض معاهدة التافنة وتجدد الحرب مع فرنسا منذ 20 نوفمبر 1839، الى الاتصال بالسلطان العثماني أملا في نيل العون والحصول على المساعدة والضغط على فرنسا، وكان حمدان خوجة قد شجعه على ذلك، بدليل أن الأمير ذكر في رسالته لحمدان خوجة نفسه، بقوله: «فاعتمدنا اشارتك بهذا الرأي الرشيد واستعطفنا سيدنا ومولانا السلطان عبد المجيد، وعرضنا على حضرته العليا حالنا، وعرفنا أفعالنا وأقوالنا لهله ينظر الينا بعين الرحمة والاشفاق»[24].

وقد حاول الأمير في اتصاله بالباب العالي أن يعرض وجهة نظره من الأحداث وموقفه من أحمد باي خاصة، وذلك من خلال النقاط التالية:

1) ألقى الأمير عبد القادر مسؤولية ما حل بالبلاد الجزائرية من استعمار وما أصاب السكان من مضرة على الحكام الاتراك الذين تولوا شؤون البلاد قبل الاحتلال، وعلى الجيش الانكشاري خاصة الذي ظلم السكان واستبد بالأمور، فذكر في رسالته الأولى للسلطان عبد المجيد والمؤرخة في 26 ديسمبر 1838: «ان الينشارية الذين كانوا بالجزائر لما خرجوا على طاعة أمير المؤمنين والدك المرحوم، عاقبهم الله بسوء فعلهم وسلط عليهم من لا يرحمهم، العدو الكافر الغشوم، فبدد

شملهم وأجتث أصلهم وملك القرى، والمدائن»[25]. كما تعرض في نفس الرسالة الى الاضطهاد الذي كان مسلطا على السكان والذي تسبب في عدم قدرتهم على مواجهة الأعداء، اذ قال: «وأهل هذا الوطن بالأصالة ضعاف، منذ عاملهم عمال الجزائر في السابق بالظلم الكبير والاعتساف»[26].

2) دافع عن زعامته وجدارته في حكم البلاد والدفاع عن المقدسات والحرمات، وهذا ما تدل عليه هذه الفقرة التي تضمنها خطابه للسلطان: «ان الناس احتاجوا الى من يضبط جهادهم ويقوم بجمع أمرهم ويجمعهم ويجمع ما به قوام جهادهم. ويتكلف سياسة خاصتهم». وفي فقرة أخرى يؤكد ذلك ويظهر وحدة الشعب الجزائري وتآلفه بقوله: «ان كلمات المسلمين اجتمعت من حدود طاعة الشرفاء الى حدود تونس، وانتفى منها كل شر ولم يبق الا ما يسر ويونس»[27].

3) حاول أن يبرر مهادنته للفرنسيين اثر عقد معاهدتي دي ميشال والتافنة، فأوضح أن أوجه الخلاف بينه وبين الفرنسيين، وبيّن في نفس الوقت الهدف من ابرام المعاهدتين بكل وضوح، وذلك حتى يخفف من حالة السخط والانزعاج السائدة في الأوساط السياسية للدولة العثمانية، فذكر في خطابه للسلطان عبد المجيد ما يلي: «لم أكن متفقا مع الفرنسيين ولم يقع ذلك البتة، وحسب مبادئ الاسلام يسمح باستعمال الحيلة والمداهنة مع العدو، وهذا ما قمت به تجاه الفرنسيين»[28].

وللتأكيد على أن المعاهدة مع الفرنسيين ليس المقصود منه الحاق الضرر بالمسلمين ، بل من أجل ابعاد الاطماع الفرنسية عنهم، أشار الى أن الحرب تجددت، وقل أبطل مفعول معاهدة التافنة عندما حاول القادة الفرنسيون تفسيرها لصالحهم بقوله: «أجبْنا الكافر بأن المسلمين شيء واحد. واننا لم نهمل قسنطينة، ولكن الكافر رفض فانقطع السلم وأعلنت الحرب»[29].

4) نفى كذلك اتهامات الحاج أحمد باي له بأنه تواطأ في القضاء عليه مع الفرنسيين. وألمح الى عجز أحمد باي عن التصدي للعدو. وذلك في معرض شرح موقفه من قضية قسنطينة. بقوله: «ولما أخذ الكافر قسنطينة من يد الحاج أحمد ولم يبق في مقابلته من ذلك الوطن أحد وقع الذي بيننا على تلك الايالة»[30]، وهذا ما جعل الفرنسيين يعارضون مطالبة الأمير لهم للتنازل عن قسنطينة، بحجة انهم استولوا عليها من يد غيره. مما يلقي المسؤولية في ذلك على أحمد باي، وهذا ما تدل

عليه هذه الفقرات من رسالة الأمير: «فالكافر يحتج بأخذها من يد غيرنا وانه أفنى عليها أمواله ورجاله ونحن نقول المسملون جسد واحد فاترك أمرهم الينا»[31].

5) سعى الأمير عبد القادر للحصول على التأييد الدبلوماسي على الأقل من الدولة العثمانية وذلك حتى يقنع الانكليز بفائدة التدخل لصالحه، لأن حكومة بالمارستون Lord Palmerston كانت تتظاهر بتأييد الدولة العثمانية وتبني مواقفها في قضية الجزائر، وقد ذهب به الحال الى التلميح للانكليز بامكانية السماح لهم بالاستقرار بميناء تنس التابع لدولته، وكلف مبعوثه الشخصي العقيد سكوت Scott Le colonel أن يصل مكاتباته المتأخرة مع الباب العالي ـ وهي على الأرجح أربع رسائل ـ عن طريق لندن، في شتاء عام 1841، وذلك حتى يطلع عليها وزير خارجية بريطانيا اللورد ابردين Lord Aberdeen ، ويسلمها للممثلين العثمانيين.

لكن استعراض وجهات النظر هذه ومحاولة التقرب للباب العالي واكتساب عطف الانكليز لم تسفر عن أي نتيجة ايجابية بعد رفض اللورد ابردين استقبال العقيد سكوت على اعتباره ممثلا شخصيا للأمير عبد القادر، وبعد أن أوضح السفير البريطاني باستانبول السير ستراتفور كانينج Sir Stratford Canning في جوابه عن استفسار الحكومة العثمانية في شأن اتصالات عبد القادر بالسلطان ، ضرورة التريث والتعقل حتى يمكن الاتصال بفرنسا والتفاوض معها، وقد ورد هذا الرد من السفير البريطاني الذي أدلى به في 21 جوان 1842، بالعبارات التالية: «ان حكومة جلالته ترى في رفض الباب العالي لطلب عبد القادر عملا يتميز بالرزانة والتعقل. فمن دون شك ان كل مساعدة قد يقدمها الباب العالي لعبد القادر، سيعرف أمرها في أقرب وقت وستثير نقاشا حادا بين الباب العالي وفرنسا. وهذا ما على الباب أن يتجنبه بأي وجه من الوجوه»[32].

وهذا ما يجعل من اتصالات الأمير عبد القادر بالدولة العثمانية مجرد محاولة لجس النبض وسبر النيات، لم تجد تجاوبا من الحكام العثمانيين لحالة الضعف والانهيار، ولأسلوب الخنوع والتبعية والتضليل والمداهنة الذي فرضته أوضاع الامبراطورية المتردية بعد انهزام جيوشها بالبلقان وتراجع نفوذها بالشام والأناضول أمام زحف محمد علي في الثلاثينات من القرن الماضي.

د ـ أما النقطة الأخيرة التي تتعلق بتوتر العلاقة بين أحمد باي والأمير عبد

القادر، فتتمثل في محاولة الأمير توسيع نفوذه على حساب سلطة أحمد باي بباياليك قسنطينة، وقد وجد أحمد باي بالفعل نفسه في موقف حرج من جراء اكتساب الأمير الأنصار والمؤيدين في المناطق الغربية من باياليك الشرق، وهذا ما جعله يذكر في احدى رسائله للباب العالي: «ان عبد القادر يعمل على خلق روح عداء لي بين السكان الخاضعين لسلطتي»[33].

وحتى لا يعطي فرصة لأعدائه لاستغلال هذا الموقف كان أحمد باي يحاول دائما التقليل من تعاظم شأن الأمير وتزايد سمعته بين أهالي الشرق الجزائري، وهذا ما يفهم من مذكراته التي ورد فيها: «ان الحاج عبد القادر قد كتب الى العرب يخبرهم بأنه أبرم الصلح مع الفرنسيين الذين اعترفوا بسيادته على كامل البلاد، وعليه يطلب منهم أن يتخلصوا من سلطاني ويدخلوا في طاعته... ولم يكن لهذه الرسائل تأثير على عرب قسنطينة ولم يستجب لعبد القادر غير فرحات بن سعيد لعداوته لعزيز ابن قانة»[34].

لكن بعد سقوط قسنطينة في يد الفرنسيين وتمكن الأمير عبد القادر من انشاء ثلاث ولايات «خليفاليكات» بالشرق الجزائري، انتهى الأمر الى التصادم بين أنصار عبد القادر ومؤيدي أحمد باي، فاستنجد فرحات بن سعيد بالفرنسيين ثم توجه الى الأمير عبد القادر بالمدية لمساعدته على طرد أحمد باي من مقره ببسكرة، فاغتنم الأمير الفرصة وأرسل معه جيشا بقيادة الخليفة محمد البركاني، مما اضطر أحمد باي الى الانسحاب من بسكرة والالتحاق بالصحراء، وبذلك أمكن لفرحات بن سعيد الاستقرار ببسكرة وحكم اقليم الزيبان باعتباره خليفة للأمير عبد القادر[35].

ومما يلاحظ في هذا السياق ان أحمد باي لم يحاول في أي وقت من الأوقات توسيع نفوذه في الجهات الوسطى والغربية من الجزائر، مما يعطي حركته طابعا محليا تعوزه النظرة الشاملة على اعتبار ان الجزائر بلاد متكاملة، بخلاف الأمير عبد القادر فانه استطاع بفضل سعيه الدائم لتوحيد الجزائريين تحت لوائه أن يبسط نفوذه على مناطق شاسعة من الشرق الجزائري، مكونا بها ثلاث ولايات على رأسها حكام يدينون له بالولاء، فتولى ولاية برج حمزة التي تضم مناطق جرجرة والصومام والبيبان الغربية المرابط أحمد بن الطيب بن سالم، وتعاقب على ولاية مجانة التي تشتمل جهات الحضنة وونوغة والقرقور كل من محمد بن عبد السلام المقراني وسيدي أحمد

بن عمر العيساوي والخروبي، ونصب ببسكرة لادارة ولاية الزيبان فرحات بن سعيد ثم الحسن بن عزوز ولد حسان ومحمد الصغير بن عبد الرحمن بن أحمد بن الحاج[36].

ومما يدفع الى التساؤل بعد استعراض الأحداث التي تميزت بها علاقة الأمير عبد القادر بأحمد باي، غياب أية محاولة توفيق لتضييق شقة الخلاف وتوحيد الجهود أمام العدو المشترك، فالوثائق المنشورة والدراسات المتوفرة الآن حول علاقة زعيمي المقاومة لا تتضمن أي اشارة الى محاولة المصالحة والوفاق، مع ان هذه المحاولة كانت ضرورة حتمية وواجبا وطنيا، هذا باستثناء تحرك حمدان خوجة في هذا الاتجاه ومحاولة تنسيق الجهود للضغط على الفرنسيين، فحمدان خوجة بحكم تفهمه للنوايا الفرنسية وتحوله عن عداوة الأمير، واحتفاظه بصداقة أحمد باي، واطلاعه على الأوضاع الأ روربية وتعرفه على أحوال الدولة العثمانية، نصح الأمير عبد القادر أن يتصل بالباب العالي وأن يبدي اعترافه الصريح بالسلطة الروحية للسلطان على مسلمي الجزائر، كما أشعر أحمد باي بفضل الأمير وصدق عزمه على محاربة الفرنسيين واقترح عليه في احدى رسائله تنسيق الخطط في مهاجمة الفرنسيين، بقوله: «والآن لت محبة عبد القادر للفرنسيين الى المخاصمة واتخاذه الحرب والعداوة فسلط عليهم صناديد العرب وأوقعوا بهم وكسروا شوكة الكفار وأوهنوا قواتهم ولله الحمد، فنرجوا أن يوافق ذلك مقترحكم ويكون لكم فيه راحة بل غنيمة ان يمكنكم والحالة هذه ان يسلطوا على الكفار بمن معكم من شجعان العرب وأن تقعدوا لهم كل مرصد»[37].

لكن اتصالات حمدان خوجة جاءت متأخرة ولم تؤد الى تقريب وجهات النظر وكان من المفروض أن يتم الاتصال بين الزعيمين وتوحد الجهود في الاجتماع العام الذي عقده الأمير بعد رجوعه من محاصرة عين ماضي بأبي خرشفة ناحية مليانة وحضره جميع فرسان وقادة وممثلي جميع الأقاليم بالجزائر باستثناء الاقليم الذي يخضع لاحمد باي، وهذا ما جعل هذا الملتقى يقتصر أساسا على حكام وقياد تلمسان ومعسكر والمدية ومليانة وسبدو وتازة وتاقدامت[38].

وعلى كل فان مستقبل المقاومة المنظمة في أوائل الاحتلال كان يرتبط بمحو الخلافات الشخصية والاعتبارات العرفية والميول الاجتماعية، وهذا ما يدفعنا الى

القول ان فشل المقاومة يعود الى أسلوب الكفاح وليس الى طبيعة الصراع في حد ذاته، اذ لو امكن توحيد المقاومة وتمكن الأمير بفعل تأييد أحمد باي له من اكتساب العناصر الحية من المجتمع الجزائري وهي جماعة الكراغلة وطائفة الأتراك وفرسان المخزن، لتغير سير التاريخ الجزائري الحديث ولامكن بدون شك ايقاف الزحف الفرنسي وآثاره المدمرة على الاقتصاد والمجتمع والثقافة بالجزائر لمدة قد تصل الى نصف قرن، وعندها تكون الأوضاع قد تغيرت ويكون المجتمع الجزائري قد اكتسب مناعة تمكنه من الوقوف في وجه الاستعمار.

هذا وفي آخر هذا البحث يجب علينا أن نسجل بكل فخر واعتزاز مقاومة كل من أحمد باي والأمير عبد القادر، وان كنا نرى من خلال واقع الأحداث وطبيعة العلاقات بينهما بأن أحمد باي كان يمثل الماضي ويحاول الابقاء على الأوضاع التي كانت سائدة قبل الاحتلال بما لها وما عليها، وان الأمير عبد القادر كان ينظر الى المستقبل ويحاول أن يقدم بديلا للأوضاع التي أدت الى الاحتلال، وذلك بانشاء دولة مستقلة تعتمد على الشريعة الاسلامية في معاملاتها ونظمها ويسعى لتكوين جيش قوي وارساء أسس ادارة تتصف بالفعالية والمرونة، وهذا ما يجعل منه الشخصية الوحيدة القادرة على التصدي للفرنسيين ويبرز كفاحه في شكل حركة تحرر وطنية أصيلة.

وهذا ما يجعلنا نستنتج في الأخير ان مقاومة الأمير عبد القادر ذات صبغة ثورية لأنها كانت تهدف الى توحيد البلاد اعتمادا على العامل الديني والحركة المرابطية ورجوعا الى تقاليد السلف الصالح، وبذلك فهو يعبر بحق عن آمال وأفكار أغلبية الجزائريين، مما يجعل منه رمزا وطنيا طيلة كفاحه للاستعمار الفرنسي.

(1) راجع دراستنا حول «علاقة الأمير عبد القادر ببقايا الادارة التركية بالجزائر»، المنشورة في العدد الخاص بالذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر، بمجلة التاريخ، التي يصدرها المركز الوطني للدراسات التاريخية بالجزائر.
(2) الاستاذ أحمد توفيق المدني، أبطال المقاومة الجزائرية: حمدان خوجة، أحمد باي، الأمير عبد القادر، والدولة العثمانية. مجلة التاريخ، عدد 4، 1977، ص 102_103.

(3) Serres, J., La politique turque en Afrique du Nord sous la monarchie de juillet, Paris, P. Gouthmer 1925, p. 132.
(4) Pellisier de Raymond, Annales Algériennes, Alger, Anselin et Gautier laguione 1836, t. II, pp. 255--256.
(5) Temimi, A., Beylik de Constantine et Hadj Ahmed 1831-- 1837, Tunis, 1978, Document No. 21 «lettre datté de 16-01-1838».

(6) المدني، أبطال المقاومة الجزائرية، ص 39. يقصد بواحد من العرب وساطة بوضربة.
(7) انظر: ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في العهد العثماني 1800_1830. الجزائر، الشركة الوطنية للنشر، 1979، وكذلك مقال لنفس المؤلف نشر في المجلة التاريخية المغربية حول الوضعية الاجتماعية لقبائل المخزن والاثار المترتبة عنها.
(8) المدني، احمد باي والباب العالي، مجلة التاريخ، عدد 6 (1978) ص 83.

(9) Le Général Azan, p., L'armée d'Afrique 1830--1852, Paris, Plon 1936 ch. 10-11, pp. 331--379.
(10) Serres, Op. Cit, pp. 127--128.

(11) عبد الجليل التميمي، مغامرة الحماية التونسية على وهران، مقال منشور في المجلة التاريخية المغربية بتونس.

(12) Serres, Op. Cit, pp. 131—132.
(13) D'Estailleur Chanterau, Ph., Abd-El-Kader: l'Europe et l'Islam au XIXe siècle, Paris Janin, 1947, pp. 115--118.
(14) D'Estailleur Chanterau, Ph., l'Emir Magnanime, Abd-El-Kader le croyant, Paris A. Fayard, 1959, pp. 99-100.
(15) Temimi; le Beylik de Constantine, Document No. 18, p. 255.
(16) المصدر السابق، وثيقة رقم 21.

(17) Churchill, Ch. H., La vie d'Abd-El-Kader, tra. Habart Alger SNED 1971, p. 120.

وكذلك ترجمة نفس الكتاب من طرف الاستاذ د. أبي القاسم سعد الله.
(18) اسماعيل العربي، العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية 1982، ص ص 272 و276.

(19) Temimi, le Beylik de Constantine, Document No. 21 (lettre du (16-01-1838)

(20) ارجمند كوران، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر 1827_1847) ترجمة عبد الجليل التميمي، تونس، ط 2، 1974، ص 68.

(22) Darcy, J. Cent années de rivalité coloniale, l'Afrique, Paris, Perrin 1904 p. 149.
(23) Darcy, Op cit., p. 151 Dépêche du 10-07, Affaires étrangères

(24) المدني، أبطال المقاومة الجزائرية، ص 113 «رسالة مؤرخة في 15 شوال 1257 هـ، 10 ديسمبر 1841».
(25)، (26) عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، تونس والجزائر وطرابلس، من 1816 _ 1871، تونس 1971، ص.ص 222_223. وكذلك الاستاذ أحمد توفيق المدني أبطال المقاومة الجزائرية، ص 100.
(27) عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق، ص.ص 222_224، عن أرشيف اسطنبول قسم العلاقات الخارجية (ادارة خارجية 280).
(28) المصدر، ص 202.
(29) المصدر السابق، ص.ص 190_200، وكذلك المدني، أبطال المقاومة الجزائرية، ص 102.
(30) المدني، أبطال المقاومة الجزائرية، ص 102، وكذلك التميمي الذي أوردها في كتابه بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، ص.ص 190_200، بهذه الصياغة «ان الكافر تمكن من أخذ قسنطينة من الحاج أحمد باي ولم يلاق أية مقاومة في الناحية».
(31) المدني، أبطال المقاومة الجزائرية، ص.ص 113 «رسالة مؤرخة في 10 ديسمبر 1841».

(32) Serres, Op cit., p. 216.
(33) Temimi, Le Beylik de Constantine, Document No. 18, p. 255.

(34) محمد العربي الزبيري، مذكرات أحمد باي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر، 1973، ص 80.
(35) محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر، نشر ممدوح حقي، بيروت، دار اليقظة ط 2، 1964، جـ 1، ص 300.
(36) يحيى بو عزيز، مظاهر المقاومة وروادها في الشرق القسنطيني، مجلة الثقافة، عدد 55 (1980) ص 13.
(37) التميمي، بايليك قسنطينة الحاج أحمد (بالفرنسية) ص 258، اعتمادا على الأرشيف التركي ادارة خارجية، ملف 2 رقم 277.

(38) Roches, L., Trente deux ans à travers l'Islam 1832--1864, Paris F. Didot, 1884, t. I, p. 370.